قصة صيف

للكاتب القصصي استيفان زرايج

بقلم الأديب أحمد فتحي عبد التواب

أمضيت أغسطس من العام الماضي بكارينبيا ، إحدى تلك الأماكن المجاورة لبحيرة كومو التي تختفي بهيجة على حافة الغابات في هدوء وسلام حتى في أحب أيام الربيع

وفي تلك الأسابيع القائظة كانت هذه المدينة الصغيرة المنعزلة عطرة ، وكان فندقها الوحيد خالياً من النزلاء دائماً ، وكان كل من النزلاء القليلين يعجب في نفسه سراً : لِمَ اختار الباقون هـذا المكان المنعزل لقضاء عطلتهم الصيفية ، ويتساءل صباح كل يوم : لِمَ لَمْ يبرحوه بعد ؟ وكنت أعجب أنا أيضاً من سيد تقدمت به السنون ، يميزه عن الباقين حسن بزته ، ويظهر من سيمائه أنه إما سياسي انجليزي صميم ، أو فرنسي جوال . مضت أيام إقامته بيننا دون أن يسمح بالاشتراك في أية تسلية محلية ، ولا يُرَى إلا متأملا دخان سيجارته يتصاعد في الجو عالياً ، وفي بعض الأحايين يقلب صفحات كتاب !

وفي أحد الأيام القائظة التي لا تحتمل جمعت بيننا الصراحة وشرف المقصد والحرية القلبية المتبادلة فلم يكن للفرق بين عمرينا من حساب . فهو ليفوني المولد ، بدأ تعليمه في فرنسا وأتمه بانجلترا ؛ جواب بلدان لم يستقر في مسكن دائم عدة أعوام ، وتدرك بسهولة أن لا مكان له بين قراصنة الجمال الذين يتزينون بجوهرات المدن بأكملها أثناء رحلة واحدة من رحلاتهم . يتذوق الفنون جميعاً يجذبه نحوها هوى عميق ، ويصده عنها ازدراء واضح أقوى من حبه لها . قضى آلاف الساعات الفريدة متجولا في رياضها دون أن يهتم بأن ينفق لحظة واحدة يخلق فيها عملاً يذكره به . يحيا على هامش الحياة نافراً من الانتماء إلى أي الجماعات ، لأنه — كما يعتقد — كنتيجة لآلاف التجارب المختلفة ، تتبدد الثروات المخزونة بها دون خليفة يمتلكها بمجرد أن تخمد أنفاس أعضائها

حدثته في هذا الأمر إحدى الأمسيات وكنا جالسين في شرفة النزل بعد الغداء نراقب كيف يتلاشى أمام أعيننا بريق البحيرة رويداً رويداً

ابتسم وقال :

« قد تكون على حق . وعلى الرغم من ذلك فإنني لا أعتقد في الذكريات . ففي اللحظة التي تفارقنا التجربة فيها ، تنتهي وتتلاشى . ألا يتبدد الشعر ويفنى أيضاً بعد عشرات ومئات السنين ؟ ولكنني سأقص عليك اليوم أمراً تافهاً يخيل إلي أنه يصلح لأن يؤلف قصة سارة . تعال ، فالمرء يفضل أن يتحادث في هذه الأمور أثناء رياضة على الأقدام »

سرنا والطريق المحبوب المجاور للشاطئ تغمره ظلال الصنوبر والبندق السرمدية ، وتتلألأ من بين أغصانها البحيرة اللامعة ، ويقبع كالسحاب من

ورائها بيللاجيو منعكسة عليه الأشعة الهادئة من الشمس وقد قاربت المغيب ؛ وهناك بعيداً فى أعلى ذرى التل القائم يلمع جدار فيللا سربيللونا وكانت الحرارة محتملة ، تحمينا الظلال منها مثل ذراع حسناء ، وقد عبق الهواء بعطر ورود غير منظورة وابتدأ قائلاً :

« سأعترف لك قبل كل شىء ، فحتى الآن لم أبح لك بسرى . فمن عدة سنين خلت كنت هنا ، هنا فى كادينبيا ، فى مثل هذا الفصل ، ومقيم فى النزل عينه . وستدهش ولا شك فقد أخبرتك أنى أتجنب استعادة ذكريات تجاربى فى الحياة

« وبالطبع كانت كادينبيا إذ ذاك منعزلة كما هى الآن . وكان يقيم هنا أيضاً ذلك السيد الذى من ميلان ، والذى يظل طول اليوم يصيد السمك ليطلق سراحه فى المساء ، وهكذا كل يوم . وكان من بين المقيمين هنا سيدتان انجليزيتان عجوزان كان وجودهما صعب الاحتمال ، وشاب ظريف وفتاة شاحبة تسحر اللب ، لا أعتقد اليوم أنها زوجته من فرط ما كان يظهر للعيان أن كلا منهما يبادل الآخر حباً مبرحاً . وكانت تقيم فى النزل عائلة من شمال ألمانيا يميزها الجد العابس ، مكونة من سيدة مسنة ، كتانية الشعر هزيلة ، قبيحة الحركات متنافرتها ، تصوب من عينيها نظرة حادة كالفولاذ ، ولها فم مستقيم قبيح كأنما شرط بمبراة ، ترافقها سيدة أخرى أسن منها ، ولا إخالنى مخطئاً إذا قلت إنهما أختان ، فالسحنة واحدة إلا أن الثانية أهزل ووجهها أكثر تجمداً . وكانتا تجلسان معاً ، ساكنتين لا تفوهان بكلمة ، عاكفتين على التطريز كأنما تنسجان السآمة والملل . وكانت تجلس بينهما فتاة تبلغ السادسة عشرة من عمرها تقريباً هى ابنة إحداهما ، وإن كان يعسر معرفة ابنة أيتهما ، لأنها كانت غير مهندمة وقد بدت سحنتها النسوية شاحبة باهتة ؛ غير أنها كانت فى الحقيقة ممشوقة القد ، نحيفة لم تنضج بعد ، لا تعنى بارتداء ثيابها فى ذوق ، إلا أن حنيناً باسماً يروعك انبعاثه من عينيها البراقتين اللتين تغضهما مضطربة إذا حدق فيهما محدق ، ويخفق ضياؤهما فى بلادة وفتور . وكانت دائمة التطريز ، ولكن فى بطء ، كأنما النعاس يدب فى أناملها التى سرعان ما تسكن ، وتسترسل فى أحلامها محملقة فى صفحة البحيرة البراقة

« ولست أدرى ما الذى أثر فى نفسى وحرك عواطفى نحوها . أكانت تلك الفكرة المألوفة المحتمة التى سرعان ما تخطر ببال من يرى الأم الذابلة الذاوية بجوار الابنة ، وقد بدأت تتفتح زهرتها وتينع ؟ أم كانت فكرة أن كل خد تنتظره التجاعيد ، وكل بسمة تنتهى إلى السآمة ، وكل حلم آخرته الخيبة ؟ أكانت تلك الرغبة الجامحة الواضحة التى تحتال الفتاة جاهدة لإخفائها ولكنها تغدر بها ويفشى سرها ما تنم عليه ملامحها ؟ أم أن التى أدهشتنى هى إحدى تلك اللحظات الفريدة العجيبة الخالدة فى حياة فتاة يافعة ، حينما تحملق فى الكون يدفعها الشوق والحنين ، باحثة عن المجهول الذى تشعر أنه ينقصها ، عن الشىء الوحيد الذى تتمنى لو تعلقت به كقشة يحملها التيار ، وبعد ذلك ، تذبل وتذوى وتتبدد ؟

« وجدت نفسى مسوقاً إلى مراقبتها لأكشف

عن سر تلك النظرة الحالمة المبللة بالدموع ، لألاحظ تلك الحالة التى تعتريها فتدفع بها لمعانقة كل قطة ، وتدليل كل كلب في إسراف ؛ لأميط اللثام عن هذا القلق الذى يحرك لهفتها على عمل كل شيء ولكنها لا تتم شيئاً ، عن هذا الحماس الشديد حينما تريد أن تلتهم المجلدات القليلة الموجودة بمكتبة النزل ، أو عند ما تتفرس حالة فى ديوانى جيته وبومباش وهما الشاعران المرهفا الحس الدقيقا الملاحظة ...

— ولكن لماذا أراك تبتسم ؟

— وكان علىّ أن أبريء نفسى فقلت :

ليست إلا المقارنة بين جيته وبومباش

«فقلت: آه ، نعم ! مضحك ولا شك ، ولكنه على نقيض ذلك . صدقنى أن فتاة صغيرة فى مثل سنها لا يهمها أن تقرأ شعراً ، رفيعاً كان أو حقيراً ، واقعياً كان أو خيالياً ؛ فالشعر للمتعمقين ليس غير كؤوس يطفئون بها ظمأهم ، فإنهم لا يعبأون بكرمة النبيذ ما داموا قد سكروا قبل أن يشربوا . وهذه الفتاة كان يعذبها الشوق الدفين ، ينم عنه وميض عينيها ، وارتعاش أناملها ، وعدم استقرارها وترددها كما لو كانت تود لو تطير ، ولكن يقعد بها الخوف . فكنت تراها تحن لمن تبادله الحديث ، عساها تنفس عن بعض عواطفها المكبوتة ، ولكن لم يكن هناك غير وسوسة الإبر تذهب لليمين ثم للشمال ، وسكوت السيدتين البارد المقصود

« هزنى الحنان نحوها ، ولكن كيف يمكننى الدنو منها ؟ وماذا يصنع رجل فى خريف حياته لفتاة فى ربيع حياتها ؟ وقد حاكل إمكان فى تقديم نفسى كراهتى للعائلة ، وبخاصة بغضى التقرب من السيدات المتقدمات فى السن من الطبقة المتوسطة

« طرأت علىّ فكرة غريبة ، فكرت أنها فتاة صغيرة طاهرة ، عديمة التجارب ، وبالتأكيد تزور إيطاليا لأول مرة التى هى بالنسبة للألمانيين (وشكراً لشكسبير لأنه لم يذهب إليها بتاتاً) أرض الحب الخيالى والمحبين ، والمغامرات السرية ، والخناجر اللامعة ، والمساخر والدونات ، والخطابات الرقيقة ... وبكل تأكيد إنها تحلم بكل هاته الغراميات . ومن ذا الذى يفهم أحلام فتاة شابة ، تلك الخيالات السابحة في عقلها على غير هدى وبصيرة كالضباب ، أو كالسحب وقت الغروب عند ما يلتهب لونها مبتدئاً بالوردى مُنتهياً بالأحمر القانى ؟ ولا شك أن اعتقادها — كما هدانى تأملى — أن لا شيء فى الوجود محال تحقيقه . وعلى ذلك عزمت على أن أخترع لها حباً مجهولاً

« فى ذلك المساء حررت لها خطاباً رقيقاً ملأته بالدلة المحببة فى غير إسراف ، لا أطلب فيه شيئاً ولا أعد بشيء ، خطاباً مبهماً فى إسهاب ولكن بتحفظ ، وبالاختصار كان خطاب حب خيالى كقصيدة من الغزل ... ولما كنت أعلم أنها أول من تبادر إلى منضدة الافطار كل صباح ، فقد أخفيت الخطاب بين طيات منشفتها

« وفى صباح اليوم التالى راقبتها وأنا واقف بالحديقة ، فرأيتها وقد بغتت من المفاجأة وظهر عليها الخوف حينما قرأت الخطاب ، والتهبت وجنتاها الشاحبتان احمراراً ، وتدرج الاحمرار فصبغ جيدها ونحرها ، وأخذت تتلفت حولها حائرة وقد اضطربت حركة يديها ، عند ما أخفت الخطاب وهى تختلس النظرات ، وجلست فى مكانها هائجة مضطربة ،

وحاولت أن تتذوق إفطارها ولكن هيهات ، فقد أسرعت فى الاختفاء ، ولا شك أنها خرجت باحثة عن أى مكان منفرد تخفيه الظلال كى تتمكن من قراءة الخطاب الخفى الغامض مثنى وثلاث ... كما تريد أن تقول على ما أرى ... ؟ ؟ »

فقد بدرت منى حركة علىّ أن أوضحها :

« يلوح لى أن ذلك منتهى عدم التبصر . ألم تفكر فى أنها قد تستعلم من الخادم كيف وضع الخطاب فى منشفتها ، أو على الأقل تظهر والدتها عليه ؟ ؟ »

« من الطبيعي أننى فكرت في ذلك ، ولكنك حينما ترى تلك الفتاة العزيزة ، الهيابة ، الخائفة ، التى تتلفت حولها قلقة إذا ارتفع صوتها أكثر من المعتاد عند ما تتكلم ، يذهب عنك كل شك ، وإنه يوجد فتيات نقيات السريرة ، يمكنك أن تذهب معهن إلى أقصى غاياتك ، لضعفهن ، فيفضلن أن يتحملن قسوة التجربة المعلومة لديهن على المجازفة فى أخرى مجهولة

« وقد ارتحت عند ما رأيتها تخرج ، وطربت لنجاح تجربتى

« وأخيراً عادت ، وبغتة شعرتُ بالدم الحار يتدفق فى كياني . الآن تغيرت المشية ، بل تغيرت الفتاة بأجمعها ! ! فقد دنت فى حيرة وخزى واضحين ، ينم عنهما موجة متأججة خضبت وجهها ، بينما حيرة حلوة مستحية ربكت كل حركة منها . بَقِيَتْ طول اليوم على هذه الحالة ، تتفرس فى كل شباك ، كما لو كانت ستعثر فيه على السر الغامض ، وتتطلع إلى كل مار بجوارها . ومرة نظرت إلىّ ، وبكل حكمة تجنبت نظرتها حتى لا أفضح سرى . وفى لحظة أحسست لهيب تساؤلها فارتبكت .. وللمرة الثانية — بعد سنين من تجاريب الحياة — أشعر بأنه لا يوجد سرور أخطر بل أفتن من وميض أول أشعة الحب فى عيني فتاة

« رأيتها مرة أخرى جالسة بين العجوزين ، تطرز بأصابع مرتجفة ، ولاحظت كيف أنها كانت تتحسس صدرها من وقت لآخر ، حيث تخفى الخطاب ولا شك

« وفى هذا المساء كتبت إليها خطاباً آخر ، وصرت أكتب إليها كل يوم ، حتى فتنني وخلب لبي التعبير عن شعور شاب فى خطاباتى ، لأخترع جوهر عاطفة نقية خيالية . وأصبحت رياضة تهزنى ، كالصيادين يسرون حينما ينصبون شباكهم لفريستهم فى الخلاء ؛ ولا يمكنني أن أصف لك جزعى من أن التجربة التى بدأتها بتحرير تلك الخطابات لا تتم

« تبدلت مشيتها فأصبحت تخطر فى خفة وسرور مطلقين ، وغطت ملامح وجهها مسحة من الجمال الشاذ المضطرب . ولا شك أنها تقضى ليلها متلهفة مترقبة خطاب الصباح ، لأنه فى وقت الافطار كانت عيناها تبدوان ذابلتين غير مستقرتين يخفق وميضهما . وقد ابتدأت تعنى بنفسها ، تزين شعرها بالورود وتتحسس كل شىء فى رفق وحنان عجيبين ، وتنم نظراتها عن تساؤل دائم ، لأنها شعرت ولا شك — من العبث الذى كنت أسطره في خطاباتى — أن الكاتب بل الملاك الذي يُحَمِّلُ النسيم ألحاناً تُشجيها قريب منها ، ولكنه غير منظور . ونمتْ سعادتها وترعرعت حتى أن السيدتين الخاملتين لاحظتا التغير الذى بدا عليها ، وكثيراً ماغضتا النظر عن تورد خديها وحركة أصابعها العصبية السريعة .. وأخيراً تختلس التنهد كل منهما . وقد عمق صوتها وبدا أوضح وأقوى وأجسر ، وفى حلقها نبضة

ترتجف دائماً ، كما لو أن أغنية تود لو تنفجر وتسيل منتصرة مثل ... ولكنك تبتسم مرة أخرى ؟ ؟ »

« لا لا أبداً !! تفضل بالاستمرار ، كنت أفكر فقط كيف إنك تجيد قص كل هذا . واسمح لى أن أقول لك أنك ذكى ، ويمكنك بكل تأكيد أن تكتب القصة كأشهر روائيينا »

« تريد أن تقول لى بكل أدب وحذر إننى أقص القصة — مثل كتابكم الألمان الأعزاء — بأسلوب مشرق ، ثرثار ، خيالى ، مطول . نعم وقد أكون أسرع !!

« وأخذت أبعد الشبهة عنى بمنتهى الحذر والفطنة . وقد أبنت لها فى خطاباتى أن المرسل لا يقيم فى كارينبيا ، بل فى إحدى المصحات المجاورة ، وأنه يأتى كل يوم إلى كارينبيا إما بالقارب أو بالباخرة . فكانت كلما سمعت رنين جرس الباخرة القترية ، تنتحل الأعذار وتفلت من رقابة العجوزين وتندفع نحو البحيرة ، وفى ركن الرصيف تقف — وهى ممسكة أنفاسها — ترقب النازلين

« ومرة بعد ظهر أحد الأيام الراكدة — ولم يكن لي ما أفعله أفضل من مراقبتها — حدث حادث هام : ذلك أنه كان بين القادمين شاب مهندم يرتدى زى شبان الايطاليين فى غاية الانسجام والأناقة ؛ وعند ما أدار طرفه بين المستقبلين ، التقت نظرته بتلك النظرة العميقة الباحثة فى يأس وقنوط ، المتسائلة ، نظرة فتاتنا الصغيرة ، وسرعان ما احمر وجهها المصفر من فرط الخجل

« تريث الشاب وانتبه — كما يحصل دائماً لكل من تصادفه مثل تلك النظرة النافذة — وتنهد ثم أخذ يقترب منها ... أما هى فانسابت بين الأشجار ثم وقفت قليلا لتتحقق إذا كان هو العزيز المنتظر . ثم أسرعت فى الابتعاد متلفتة حولها ثانية .. إنه الكفاح الأزلى بين الارادة والخوف ، بين الرغبة والعار ، والأقوى فيه دائماً هو ذلك الضعف الحلو اللذيذ

« ومن الواضح أن الشاب قد تشجع ، وبالرغم من العجب الذى أصابه ، أسرع فى أثرها . فتولانى خوف من أن كل شئ قد ارتبك واختلط . وفى هذه اللحظة ظهرت السيدتان الألمانيتان على رأس الطريق ، فأسرعت الفتاة نحوهما كالطير المذعور . فتقهقر الشاب بحذر ولكنه التفت مرة ثانية والتقت نظراتهما الملتهبة التى أصابت كلا منهما فى الصميم

« وفى أول الأمر نبهتنى هذه الحادثة إلى أن أنهى هذا الدور الذى كنت ألعبه ، ولكن التجربة كانت لم تزل على أشدها ، وعزمت على أن أغتنم هذه الحادثة . ففى المساء حررت لها خطاباً مطولاً أكدت فيه حذمها ، وكنت سعيداً جداً بأننى سأضرب عصفورين بحجر

« وفى صباح اليوم التالى ، راعتنى منها تلك النظرات الحائرة فى عينيها ، فقد خضعت تلك الجميلة الضجور لسكون عصبى غامض ، واحمرت عيناها وتندت من كثرة الدموع التى انسكبت ، وكأنما سكن فى أعمق أعماقها ألم قاتل . وخيل إلىّ أن سكونها هذا كالهدوء الذى يسبق الزوبعة العاتية ؛ وبدأت أشعر بالخيبة بعد أن كنت أبغى السرور الخالص ، فلم تطع الراقصة ولم ترقص كما كنت أود

« أنعمت النظر فى كل احتمال ، ولكننى لم أهتد إلى حل موفق . وبدأ يروعنى نصيبى فى هذه المسئلة ، ولكنى أتجنب نظراتها الشاكية الباكية . لم أعد إلى النزل حتى المساء . فلما أبت تذكرت كل

شيء . فالمائدة لم تشغل ، والعائلة قد رحلت ، وهي قد أرغمت على الرحيل دون أن تتمكن من التمتع بكلمة واحدة يسرُّها لها الحبيب ، ودون أن تعلن لحبيبها كيف أن قلبها سكن يوماً واحداً بل لحظة واحدة إلى حبيبها المعبود . استيقظت من حلم حلو لذيذ لترحل إلى إحدى القرى القاتمة تجتر أحلامها الخائبة .

« فاتني كل ذلك ، والآن يهمني ويشعرني العار تلك النظرة الأخيرة الباكية ، وهذا المزيج المخيف من الغضب والعذاب واليأس القاتل والأسف الحاد الذي سببته لها بسوء تصرفي »

* * *

أحاطنا الليل بظلمته ، وتسرب ضوء القمر — الذي يطل بنصف وجهه من بين السحب — من بين الأشجار كالحيات تسعى ؛ وزاد المكان روعة شحوب النجوم وسكون البحيرة الميتة . مشينا دون أن ينبس أحدنا بكلمة ، وقد غرق رفيقي في تخيل عميق . وأخيراً قال :

« تلك هي القصة ! ألا تصلح لأن تكون قصة جيدة ؟ »

« لا أدري ، إنها قصة سأحتفظ بها بين قصص الحياة العديدة . وعلى الرغم من قصرها ربما يسترعي الانتباه فقرة جيدة تلمح من بين سطورها القليلة . إنها بداية ولا بد من خاتمة لها »

« آه ! فهمت ما ترمي إليه حياة الفتاة وعودتها إلى القرية ، والمأساة المرعبة في المكان المعلوم ... ؟ »

« لا ... ليس هذا بالذات ، فالفتاة لم تذهب بعيداً في مسرتي . فالفتيات الصغيرات عادة لا يسببن سروراً إذ يعتبرن أنفسهن كاملات التجارب ، ولا سيما وأن موقفهن سلبي . وعلى ذلك فكلهن متشابهات . وإليك مثلاً : فالفتاة في هذه الحالة ، عند ما يحين الوقت الذي فيه تتزوج من شاب متمدن متوسط الطبقة فاضل ، لا يتألق في مخيلتها إلا الورود الملتهبة اليانعة والأحلام المحلقة الحائمة حول الزوج العزيز ؛ أما حقيقة الحياة وصرامتها فلن تمر لها بخاطر ... لا ... لا ... أنا لا أسر بالفتاة الصغيرة »

« هذا غريب ! ولا أدري أي سرور تجده في الشاب ، فإن مثل تلك النظرات الملتهبة تصادف كل إنسان في شبابه ، إلا أن معظمهم لا ينتبهون لها مطلقاً وبعضهم ينسونها سريعاً . ويجب أن تتقدم بالمرء السن حتى يعلم أنها ربما كانت أشرف وأعمق تجارب الوجود وأعظم امتياز مقدس لعهد الشباب ... »

« إنه لا يرضيني الشاب الصغير أيضاً ... »

« إذن ؟ »

« سأحدد موقف الرجل العجوز ، كاتب الخطابات ، وأصور مقاوماته ... لا أظن أنه يوجد مخلوق مهما بلغت به السن ، في قدرته أن يحرر الخطابات الغرامية الملتهبة ويحلم بالحب ثم يخشى اللوم والتقريع ... سأحاول أن أصف — مستنبطاً من مجرد الحقيقة — كيف تنمو العاطفة وتترعرع فتستبد به وتتسلط على تفكيره وتصرفاته في الوقت الذي يخيل إليه فيه أنه المسيطر على عواطفه الضابط لها ... فجمال الفتاة المشرق — في الوقت الذي يعتبر نفسه كالمتفرج اللاهي به — يجذبه ويسبيه ، ثم يؤثر فيه ويسكن في أعماقه البعيدة ، وعند ما يفقد كل مقاومة ، تتنبه فيه رغبة جامحة للنزال والهروب ولكن هيهات ... وتلك هي الملهاة ؛ وهذا الرد فعل (الانعكاس) للحب — الذي يجعل العاطفة في العجوز والشاب متشابهة تماماً — هو الذي يسرني

« سأصور شعوره بالخوف ، وسأظهره غير مستقر ، يضرب في الأرض باحثاً عنها عسى أن

يراها ، ولكنه لا يجرؤ على الوصول إليها . سأجعله يكر راجعاً لنفس المكان الرهيب آملا أن يجدها مرة ثانية ، يستجدى المقادير أن ترحمه ولكنها لم تزل ثابتة على قسوتها حتى اللحظة الأخيرة .. بهذه النتيجة وبتلك الصور سيتم بناء القصة الصغيرة ..»

« كذب ، خداع ، غير ممكن ...! »

فزعت وجفلت من صوت رفيق الذى قطع علىّ قولى بقسوة وتهديد ، ولأننى لم ألاحظ عليه من قبل مثل تلك الثورة العاطفية . وفى لمح البصر أخذت أستعيد فى مخيلتى ماعساى أكون قد جرحت إحساسه به فى غير وعى منى ، فإذا به يقف فجأة وقد بدت على تقاسيم وجهه آثار الألم الذى يحسه . ورغبت فى أن انسحب سريعاً ، وأغير موضوع الحديث ، ولكنه تنبه ثانية وعاد يتم حديثه بصوت هادئ عميق ممزوج بعصبية محببة :

« قد تكون على حق ، وهذا فى الواقع سار جداً ، فالحب يكلف العجائز غالياً . وأتذكر أن بلزاك قد جعله عنواناً لإحدى قصصه الشجية المثيرة للعواطف . ولا شك أن كثيرين غيره سيكتبون تحت العنوان نفسه ، ولكن كبار السن منهم — الذين يعلمون أسرار ذلك — سيقتصرون على ذكر وقائع النجاح والفوز دون الاخفاق والهزيمة مطلقاً . إنهم يخشون أن يكونوا سخرية فى مواقف لاتنتهى حتى يسكن رقاص الزمن الأزلى . وهل تعتقد حقيقة أن تلك الفصول من مذكرات كازانوفا ، التى تصف المفاجآت التى تفجأنا فى سن متقدمة قد فقدت ؟؟ كلا ... إننى أعتقد أن قلبه ويده قد هرما قبل أن يتمها ...»

بسط إلىّ رفيق العجوز يده وقد أتم قوله بصوت يتم عن البرود والتحجر :

« ليلة سعيدة أتمناها لك ، ولو أنى أرى ، أنه من الخطر أن تحكى للشباب قصص ليالى الصيف المثيرة . إنها سرعان ما تلهب فيهم العاطفة الملتهبة ، وتتركهم نهباً للأحلام السخيفة والأمانى الباطلة ... مساء الخير ! ! »

* * *

وغاب فى ظلام الليل بخطواته التى لم تُخْفِتْ من وقعها السنون إلا قليلاً . وكان الوقت متأخراً ، ولكننى أحسست بضيق طالما يصيبنى لسبب حرارة الليل وفورة الدم فى عروقى عند المعركة أو حينما يكون المرء صريع تجربة مجهولة — فى لحظة محزنة —

فانسبت فى الطريق المظلم الموصل إلى ڤيلا كارلوتا ، التى تنحدر درجاتها المرمرية حتى تغمرها مياه البحيرة ، فجلست على حجر أحسست برودته ، وكان الليل عجيباً وأنوار بللاجيو التى كانت تنساب من بين الأشجار كالدود الملتهب المتوهج تبدو الآن بعيدة بعداً شاسعاً تلمح فوق سطح البحيرة ، وأخذت تختفى تدريجياً واحدة إثر واحدة حتى لف المكان ظلامٌ شامل مخيف . ولم يؤنسنى فى وحشتى إلا خفقان الأمواج وهى تصطفق على درجات السلم ، وإلا خفقات النجوم اللامعة فى السماء الشاحبة اللانهائية . وبين لحظة وأخرى تتفجر إحدى النجوم وتغوصُ فى ظلام الليل المرعب كالسهام الطائشة . تُرَى إلى أين تسقط وتستقر ؟ ؟ ؟ ... فى الوديان والجبال وفى أعماق البحار البعيدة . ولا شك أنها تنقذف بقوة طائشة مثل حياة أُلقيت من علٍ فى أعمق أعماق أقدار مجهولة

أحمد فتحى عبد التواب